سفينة تكون مسافرة الى انكلترا فان هذه الطريق أقصر من الاولى بعشرين يوماً تقوي «لولا» أن تودعنا لان بلادها لقلما عرفته منها لم تبت في نفسها شيئاً من الرغبة في توطنها ولانها تعلم فوق ذلك انا نحبها

ماتمت على هذا السفر بحال» فاميل» قد مضى وقته هنا في الالتفات الى العلم والاتقان في مسائله فهو يعود الى بلاده الآن ناقلا اليها مجاميع في علم التاريخ الطبيعي بل حاملا ما هو خير لها منها — ضروب الاشغال الكثيرة بارائي وصنوف الذكر للاوطن وقد تربى طبعه في مدرسة الاختبار والحياة التي لا يربي الرجال غيرها»

نعم اني لا أعني بهذا القول أن ألزم جميع من هم في سنه من المراهقين أن يبتعدوا عن أوطانهم بقدر ابتعاده ولكن رأيي الذي لا أحول عنه هو انهم لو خرجوا قليلا من أصدقائهم ورأوا الكون في الكون قبل أن يروه في الكتب لغنموا من ذلك أكثر مما يتوهمون اهـ

الكتاب الرابع في تربية الشاب

المكتوب الاول من «أميل» الى والده

وصف معيشته — نادي الطلبة الالمانيين ومحاوراتهم — تهافتهم على خدمة الحكومة تفكر «اميل» في أمره — تأففه من عدم فهمه اللغة الالمانية — ذكره «لولا» استيحاشة من غربته

برلين في ٨ يناير سنة — ١٨٦

التقطت في سلك المدرسة الجامعة بعد امتحان كان لابد من تأديته وصرت أدعى منذ أسبوع بالسيد الشاب

من المفروض علي أن أكاشفك بشيء من تفاصيل معيشتي وأنا طالب : امانهاري فأصرفه في تلقي دروس الحكمة والتاريخ والقوانين وعلم تركيب الحيوان والنبات ومنافع أعضائها والمقارنة بين اللغات وغير ذلك وأما ليلي فاقضيه في مسكن استأجرته ستة أشهر بنحو مائة وخمسين فرنكا واما طعامي فأتناوله في مطعم على مائدة جامعة في مقابل أربعة وعشرين صولدياً (١) وبعد العشاء تارة آوي الى حجرتي وطوراً

(١) الصولدي جزء من عشرين جزءاً من الفرنك فقيمة طعامه هي فرنك وربع

أتنزه في المدينة ولكوني أجنبياً لما أطلع على اسرار طائفة الشبان كلها على ان أحدهم قد أخذني معه ذات ليلة الى مدخن (مكان لتدخين التبغ) يجتمع فيه بعض الطلبة الالمانيين فلما فتح بابه حتى رأيتني تائهاً مغموراً بسحاب مركوم من الدخان حال بيني وبين رؤية جدران المكان وسقفه بل رؤية المكان برمته وكان يخيل الي انه يمتد الى غير نهاية وكنت اسمع اصواتاً واغاني وقهقهات ولا ابصر شيئاً من الصور الحية وأرى أضواء حمراء تبدو في بعض جهات هذا المكان يشاهدها ذلك السحاب كأنها تسبح منه في بحر لجي وكنت أمشي كخابط ليل وراء الدليل وعلى مقربة منه بين سفين من الموائد خيل الي انها تعوم في الضباب ورأيت عليها رؤية غير مستبينة آتية من القصدير كان لمائها المدني يجهد في صدع حجاب الظلام الدخاني المتسدل على القاعة كذا ثم لمحت من خلال هذه الآنية وجوهاً آدمية لان بصري كان يتدرج في اعتياد هذا الجو الغريب والانس به ولم يكشف عني الحجاب كشفاً تاماً الا عند ما بلغت نهاية القاعة حيث اقيم مصطبة عظيم فرأيتني في جمع حافل من الشبان على رؤسهم القلنسوات وفي أيديهم أكواب الجعة وبين هذا التشويش والغط عثرت على حلاق من الطلبة قامت بينهم مناظرات في مسائل مهمة ولم تلههم عن مداومة الشرب والتدخين

ان أذني لم تعتد سماع الاصوات الالمانية اعتياداً يكفي لمتابعة مجرى الحديث وفهمه ومع ذلك فقد فهمت من فحوى ما سمعته انهم يتناظرون في مقاصد ورسائل بعضها اسمى من بعض تتعلق باصلاح أحوال البشر وكانت البراهين والنكت والمعاني تنبعث من أفواههم كأنها سهام نارية تتقذف بين أنفاس الدخان ولما أنصت الليل غادر القاعة جميع الطلبة ورأيت بعض من لاحظت فيهم الحمية والغيرة على مصالح الانسان منصرفين الى بيوتهم وقد جعلوا يغنون جهاراً في وسط الشارع أغاني مبتذلة ولم يبد عليهم حينئذ ما يدل على انهم ذاكرون لما تعاهدوا عليه من اصطلاح شؤون الكون

أخص غاية للطلبة من اختلافهم الى المدارس الجامعة هنا بحسب ما سمعت هي ان يلوا عملا من أعمال الحكومة فكلهم يؤمل أن يكون خادماً لها على تفاوت بينهم في ذلك فاذا حصل أحدهم على لقب دكتور مثلاً رأيته يقدم للباحث شهادته راجياً ان تولية أحد الاعمال المختلفة في ادارتها ومعظم هذه الاعمال لا يولى الا بالامتحان ولا ينال الا من

يظهر أنهم أعلم من غيرهم وحينئذ يعول الذين يخيبون فيه على الاشتغال بالاعمال المستقلة ولا أدري اهذه الحالة وهي فرط الرغبة في تقلد المناصب العامة هي التي ينبغي ان ينسب اليها التغير الذي يحصل في عقول شبان الدكارة عند خروجهم من الجامعة أم له سبب آخر

فالواقع هو انه ليس بين اخلاق الطلبة واخلاق غيرهم من الالمانيين ادنى مشابهة: الطلبة يتظاهرون بالتفنج (١) والشذوذ والعربدة ويخيل الى من يرى غيرهم من الالمانيين انهم عاشون سكينة بل جمودا وبلادة والاولون مشهورون بالميل الى الثورة وبحب الحكومة الجمهورية وبعدم المبالاة بالخوض في اي بحث نظري وبالهجوم على جميع المسائل سياسية كانت او دينية او قومية بما يدهش من جرأة الجنان وبقية الأمة يظهر عليها التشدد في الاستمساك بالعوائد القديمة وبالحكومة الملكية . وترى الطلبة يتباهون باحتقارهم جميع الميزات التي لا منشأ لها الا اتفاق النسب على حين ان أواسط الناس يجلون ألقاب الشرف اجلالا لاحدله فترى الفريقين كطبقتين متمايزتين وليس للطلبة في الحقيقة ارتباط بباقي الامة الا رغبتهم العظمى في أن يلوالهم بعد مبارحة الجامعة اعمالا رسمية على ان هذا الارتباط كاف في عدم اكتراث الحكومة كثيرا بما يبدونه من حدة أفكارهم الحرة .

دعني سيدة هؤلاء الشبان الى التفكر في سيرتي فاني قد بلغت التاسعة عشرة من عمري ولا مقام لي بين الناس بل لم يقف بي الاختيار حتى الآن على صناعة نافعة اشتغل بها واذا أردتني على الاقرار لك بما أجده قلت اني أحيانا آنس من نفسي فتورا في الهمة وضعفا في العزيمة وأسائلها عما أصلح له من الاعمال وأنا ضائق بذلك صدرا نعم انك قد رأيت مني تقدما سريعا مناسبا لطالبي في العلوم ودرس كتب المتقدمين في أربع سنين أو خمس مضت وماذلك ولا شك الا من الطريقة التي أهلقني بها أنت ووالدي للعمل العقلي وهي مراقبة الأمور والاسفار وما تتقيته منكما من الدروس النافعة ولا اشك ان لي طمعا في العلم ولكني أجهد فكري في استقصاء ما يوزني من الخصائص فآونة أتوهم اني احس في نفسي بروح الهي يقدرني على كل شيء

(١) التفنج افتخار الانسان بأكثر مما عنده

وساعات يخيل إلي اني قد فقدت في عجزي وتجردت من حولي وقوتي وتارة تملكني الافكار وطوراً يستحوذ علي وجدان الحاجة الى العمل والذي اراه يقيناً في الجد الى الآن استقامة واستقراراً فيما لنفسي من القوى ان صح ان يسمى بها ما الشاب مشغل من الشهوات القوية التي تدعوه الى السعي لادراك مقام له في هذه الدنيا

لما بلغت ليبا منذ شهرين كنت اعتقد اني على علم باللغة الالمانية لما قرأته منها في الكتب فما لبثت ان تبين لي خطأي في ذلك ومنشأ هذا الخطأ اني كنت احسن قراءة الصحف وعناوين الحوانيت واسماء الشوارع وما على الجدر من الاعلانات فان الجدر هنا كما تعلم تتكلم بالالمانية فاذا جرت حولي المحاورات اصغيت اليها وما كنت أسمع الا اصواتاً لا أفقه شيئاً من معانيها فكنت مطلق البصر اسير السمع لان من الاسر المعنوي الحقيقي ان يعيش الانسان بين قوم لا يفهم لغتهم. كان الغلام الذي في الثالثة من عمره وهو في هذه السن لا يعرف من هذه اللغة الا التأتم ببعض ألفاظها يعرف منها أكثر مما اعرف حتى اني لما كنت احاول مخاطبته كان ينفض الي رأسه استهزاء كأنه يقول مالك عني اني لا افقه لك قولاً

كنت بين اولئك القوم كالاصم الابكم الذي فقد كل وسيلة التفاهم حتى لغة الاشارات فهل يمكن ان ينشأ عن الامواج الصوتية اذا اختلف انتقالها الى الاذن اختلافاً يسيراً باختلاف كيفية تحريك الشفتين مثل هذه الحوائل والحجب التي تمنع الناس بعضهم عن بعض

استأت جداً من هذه العزلة فجاهدت جهاداً عظيماً في التجرد من الانكباب الذي اجده من حياتي الطبيعي وانشأت اليوم انطق بالالمانية نطقاً مفهوماً وأراني لا علم انه لا يزال يعوزني تحصيل الكثير منها ولكن من هو في مثل سني قد يبعد ان لا يحصل في قليل من الزمن لغة هو لا ينفك يسمع اصواتها من افواه جميع الناس في هذه البلاد وليس اصعب ما في هذه اللغة التكلم بها فما أرى بل هو فهم ما يسمع من التحاور بها بين اثنين من أهلها فقد كنت ذات مرة في الملعب وكان اثنان من الممثلين يتحاوران فما استطعت في سرعة تحاورهما ان افهم كلمة منه اللهم الا ما كان من عبارة المجاملة وهي «ليلتك سعيدة»

(٥٥ — للتلي)

مثل اللغات الاجنبية ان لم اكن واهما كنز دخان التبغ بالنادي الذي حدثتك عنه في كونه كان يحجب عني بدءِ بدء رؤية ما كان فيه من الاشياء والاشخاص فهي حجاب سيزول على التعاقب وآمل ان يظهر لي النور عما قليل

ارجوك ان تتوب عني في تقبيل والدة ولاء واود لو ادري هل هي مواظبة على عنايتي الازهار وتمام العناية بالطيور وتنسيق مجاميع الاعشاب والدقائق وآمل منك إيصاءها بأن تذكرني كما اذكرها

إذا انا كتبت اليك فقد كتبت الى والدتي فانها في قلبي لا تفترقان ولهذا لا ازيدها شيئاً الا اسفي على حرماني من حجرتي الصغيرة التي كنت أسمع منها حركة غدوكما ورواحكما في البيت وعلى أنسي بقربكما عند اصطلاء النار ليلا فاني هنا في وحشة أي وحشة . اختم لك هذا المكتوب في الساعة الحادية عشرة من الليل على ضوء مصباح يملوه طاكس خوفي يتسلط منه نور ضارب الى الحضرة في احدى زوايا حجرتي ساعة دقاقة من الصنف الذي يصوت كطنين الكوكو عند انقضاء كل ساعة تتكرر تكتكتها التي لا تغير واسمع حطب احتراق الحطب في التنور وصرير الباب من صفق الريح اياه واري البدر من خارج المجرة شاحب الوجه يرنو الي من خلال ستارتين كبيرتين موشاتين بالاشجار والازهار ما بين بيضاء وحمراء وقد أحسست بإشراق عيني مع ان هذه الاشياء في ذاتها لا تدعو الى الحزن ولكن لا تلمني فاني ما زلت طفلا ولست آسى على بلادي وانما آسى على مفارقة مهدي فاني احبها وأرجو من هذه الجهة على الاقل ان اعيش طول عمري طفلا

آثار الإمام محمد عبده

تاريخ الاستاذ الامام

ان التربية بناء يوضع على أساس القدوة ويرفع على قواعد الاسوة فبقدر عظماء الرجال وأئمة يذخر للاجيال . وازالمرة بسير المعاصرين أقوى من العبرة بسير الغابرين . لان عامة الناس عندنا تعتقد ان الاولين من عنصر ازكى . واستعداد اقوى .